تمثلات الجسد في الكتابة الأنثوية

أ.مبروكة حولي
جامعة عنابة

ملخص المقال:

يعد الجسد مكونا أساسيا من مكونات الهوية وهو مصدر خلاق للكتابة الأنثوية، كونه أصبح محورا تتمركز حوله الأحداث والوقائع،فيعرض لنا التوتر القائم بين الجسد بوصفه هوية أنثوية وبين استعمالاته باعتباره موضوعا للذة.

يلخص الجسد تطلعات الأنثى وإحباطاتها ومظاهر استعبادها فمنحته صورا مختلفة من ذلك الجسد المبتور والجسد المغتال والجسد المقموع.عملت الأنثى على السمو والارتقاء بجسدها فجعلت منه رمزا للعطاء والحياة تجاوز حضور الجسد في الكتابة الأنثوية دوره الطبيعي فاكتسب قيمة ثقافية وجمالية أكسبت الكتابة الأنثوية خصوصية.

Resume

The body is the main element that constitutes identity.it is Considred as a source for writing about woman .it is the center of events And realities that show us the tension that happness between lovers,as a result of discribing the female identity and considering it a subject of pleasue.

The body summarizes the female wills frustrations and servitude appearance by giving it diferent descriptions as being handicapped murdered And crushed.the female worked to elevate the value of her body to make it a symbole of tender ana life.the presence of the body in female writing surpasses its naturel role. So it gains a culturel and aesthetic value, and it gives the female writing uniqueness.

عانت المرأة من التهميش والإقصاء لكن طموحها للارتقاء بذاتها جعلها تتجاوز هذا الوضع أو الإطار الذي وضعت فيه ،فحاولت إثبات هويتها بكل الطرق ،وقد كان الولوج إلى عالم الكتابة أفضل الطرق لإثبات وجودها وكيانها، فهل استطاعت المرأة من خلال الكتابة إثبات وجودها ؟وإلى أي مدى حققت المرأة هويتها؟ وما علاقة الجسد بالكتابة ؟ وكيف تجلى حضور الجسد في كتابتها ؟

إن المرأة الكاتبة وهي تلملم الواقع المعيش لتنظمه في رواية تصطدم بكبت داخلي تشكل من خلال تصنيف الآخر لها بالدونية والهامشية، ولعل هذا ما دفع بها إلى البحث عن هوية تصنعها من خلال الكتابة، وذلك لمواجهة الواقع الذي فرضه عليها الرجل، ولعل أول اكتساب لهذه الهوية، بدأ حين قررت امتلاك ضمير الأنا الذي من خلاله قدمت نقلة نوعية في قضية الإفصاح عن الأنثى إذ لم يعد الرجل هو المتكلم عنها والمفصح عن حقيقتها وخواصها، كما فعل على مدى قرون متوالية، بل صارت المرأة تتكلم وتفصح عن ذاتها [1]

إن امتلاك ضمير الأنا، كان بالنسبة للمرأة فتحا مهما سيقود إلى الإعلان عن تأسيس مبدأ الهوية الأنثوية "في قراءة النصوص والنزوع نحو إقرار الاختلاف الجنسي كمبدأ تفسيري في النقد النصي والنظرية الأدبية، وكإطار نقدي لأجل تحليل البنى الاجتماعية والسياسية والتشكيلات الثقافية" [2]

اهتمت مختلف العلوم والمعارف(السيكولوجيا،الأنتروبولوجيا،الموضة،الإشهار، الدين،...)بالجسد . إذ يصعب أن نجد نشاطا إنسانيا في بعديه المادي والرمزي لا يستحضره في وعيه بالعالم وتقصيه للأشياء وإنتاجه للمعنى ،فالجسد معبر كل العلامات وملتقاها وبؤرة تتخلق منها مختلف القيم والدلالات.والحديث عن الوعي بالذات ليس مجرد شعور نفسي بحضور الأنا في مسرح الأحداث أو في طيات الزمان والمكان،وإنما هو إدراك حسي لوجود الأنا كجسد وذاكرة، وهذان المفهومان ينطويان على خزائن فكرية ورمزية يتعذر استنفادها.إذا كان الوعي هو دوما الوعي بشيء ما حسب الشعار الفينومينولوجي،فإن الوعي بالذات هو الوعي بالجسد وبالذاكرة.والحديث عن الجسد ليس مجرد استدعاء لأعضائه الحسية المسماة بالجسم ،وإنما الجسد

نسخة غير قابلة للطباعة

في بعده الأنطولوجي كذاكرة وإحساس أو حقل لتوقيعات الحدث والحاضر.فالجسد بالنسبة للوعي كالوثيقة المؤرشفة بالنسبة للوعي بالتاريخ،لأنه يمثل بؤرة الإدراك بأشياء العالم وبشيئية الوجود،وهو أحسن وثيقة حية وناطقة،حاملة لذاكرة الزمن ولرسوبيات الخطاب والفعل والسلوك،وربما الوعي التاريخي للأنا أو الوعي بلحظتها الراهنة يمر عبر الوعي بالذاكرة والجسد،بمعنى الالتفات إلى الأمر البديهي المسكوت عنه والمحجوب من فرط وضاعته أو المستبعد من شدة حضوره[3].

يمثل الجسد جزءا من كيان الإنسان،إذ لا يكفي أن يقتصر وعي الإنسان على ماضيه وحاضره،بل يجب أن يع قبل كل ذلك ذاته وبالأخص جسده.

لقد تنبه كثير من المفكرين والدارسين إلى أن الجسد لا يلج منطقة الضوء ومركز الاهتمام ويعبر عن قيمه الكامنة إلا حينما ينزاح عن العقل والعلم ومقتضيات النظر للصرف صوب رحابة الخيال ومدارات الفن وتجربة الأدب[4]

هنا ولج الجسد عالم الأدب ووظف تيمة في متون النصوص الروائية النسوية بصفة خاصة،فقد مثل الجسد في الرواية النسائية عمقا جغرافيا وأسطوريا وتاريخيا وجماليا،كما مثل هاجس الرواية ونواتها الحكائية،حيث تتشكل من حضور الجسد كمؤشر دلالي وإيقاعي يتكئ عليه السرد،وحتى تتم عملية الخصوبة والنماء والتشكل والصيرورة لا بد من وجود الآخر لتكتمل عملية التلقيح ويتم للسرد وجوده ودوامه[5]

اشتغلت الرواية النسائية على الحفر في الجسد وإظهار تخومه وجغرافيته خارج سياجات النسيان والصمت فقد"شكل الجسد جوهر الرواية الذي يشكل عالمها التخييلي والتركيبي،وقد مثل الجسد عند المرأة أقصى لذة التشكيل عندما يتلاحم الجسد بالنص ويبوح بما لديه محملا اللغة نبوءاته ووجعه.هنا يتحول النص إلى مستجيب لنداء الجسد،يستدعي لغة ترفع الجسد من الحسي إلى التجريد حيث يتم الذوبان والتلاشي والغناء بين الجسد والنص الذي سوف يحافظ على بقاء الصورة الجسدية المرغوب فيها[6]

يمثل الجسد مقوما أساسيا من مقومات الهوية الأنثوية،وقد وعت المرأة قيمة هذا المقوم فراحت تستنطقه وتستحضره في نصوصها الروائية.

لقد تجاوز الجسد الأنثوي في الرواية حدود العضوية الذاتية وغدا في معظم مواقعه رمزا يستخدمه الروائي لإثارة المخيلة وتطرية السرد وتجميل عالم الرواية. لقد بنى عليه الروائيون هياكل رواياتهم ثم كسوه بالمواقف العاطفية وظللوه بالرغبات وكتبوا عنه النصوص الإبداعية التي تكسر حدود الزمان والمكان وتزيح عنه الحدود والأغلال وتتجاوز المحرمات الاجتماعية والدينية وتمنحه صفة الخلود فيسمو فوق الموت والحياة، يقاوم بشهواته جبروت الفناء والقهر،وجعلوه ترميزا فنيا يبوح بالمكبوت ويشبع النهم بحيث يغدو الجسد المحجوب مكشوفا لأن الكشف في العرف الروائي لم يعد خطيئة أو عيبا بمقدار ما أصبح حرية وعطاءا.وبذلك تتناسى الرواية - إلى حد ما- وظائفه الإنسانية في الكدح والعطاء والخصب،بينما تلتفت إلى كل كبيرة وصغيرة في جغرافية أعضائه وأجزائه ومسامه وخلاياه[7]

شكل الجسد في الرواية النسائية فضاءا عنكبوتيا تمتد خيوطه إلى جميع العوالم السردية الأخرى،فجغرافية الجسد هي جغرافية النص واستبطان الجسد الأنثوي هو استبطان للفضاء النصي وتمثل لخصائصه.

وبذلك فإن النص الذي تكتبه المرأة هو نص يعكس هويتها، كونه الناطق بالدواخل الإنسانية والاجتماعية والتاريخية والسياسية للمرأة، وكونه يعكس المؤثرات الخارجية الثقافية خصوصا التي أثرت في هذا الخطاب بشكل أو بآخر.

ومن هنا كان لزاما علينا الوقوف عند بعض النصوص الأنثوية وذلك للكشف عن تداعيات حضور الجسد في الكتابة الأنثوية وتبيان كيفية توظيف واستخدام المرأة لهذه التيمة التي جعلت كتاباتها تتميز عن كتابة الرجل وتكتسب خصوصية ما .

نسخة غير قابلة للطباعة

يمثل الجسد الأنثوي أحد المحاور التي دارت حوله نصوص الرواية النسوية ودرجة الاهتمام به تختلف من نص لآخر، ففيما لا توليه بعض الروايات إلا اهتماما عابرا تحتفي به أخرى، وتنهمك في رسم تفاصيله واستيهاماته فيكون مثارا للإعجاب والحفاوة والرغبة، وهي حفاوة تقود إلى ظهور السرد الكثيف الذي ينشغل بالجسد دون أن يندمج ذلك في سياق الحكاية.

لقد كان الجسد المحور الذي تتمركز حوله الأحداث والوقائع كونه يمثل قيمة ثقافية وجمالية كبرى بإمكانها أن تجعل الخطاب الإبداعي النسوي خطابا مغايرا للخطاب الذكوري، وذلك انطلاقا من خصوصية بيولوجية وطبوغرافية هذا الجسد، ومما أقيم حوله من تيمات وعلاقات أسطورية وواقعية وإشكالية عديدة، جعلت هذا الجسد المشبع بتصورات الموت والجمود محور النص الأكثر حياة وإثارة وقابلية للتحول بصفة الجسد قيمة جمالية تميز الأنثى [8]

تكسب الكتابة بالجسد الذات الأنثوية هويتها، تلك الهوية التي تنقاد مرغمة للسائد الاجتماعي والأعراف المجتمعية، مما يؤدي إلى خلق علاقة إبداعية بين المرأة والكتابة من خلال مسألة الهوية في اتصالها مع مسألة الجسد والحقيقة الأنثوية وفعل الكتابة، لذلك تكتب المرأة من أجل تحقيق ذاتها داخل النسق الذكوري العام المهيمن على المجتمع. إن كتابة المرأة تفجير للأشياء التي ينطوي عليها الجسد فتطل علينا عبر الإيحاءات والإيماءات وتكثف فعلها في جسد الآخر المتماهي والمختلف، والكتابة بذلك تصوغ كتابتها بشكل مختلف تماما عن أشكال كتابة الرجل [9].هذا مانلمسه في رواية ذاكرة الجسد التي احتفت بجدلية الجسد الأنثوي والنص،فقد صور متنها السردي الجسد في بتره وعطبه في ألمه وغيضه وإحساسه بالنقص وإحساس الغير نحوه بالقرف والشفقة،ناهيك عن الرغبة في امتلاك جسد الآخر والإحساس بالحسرة والضياع بعد التيقن أن البطلة أصبحت ملكا لغيره، وبذلك كانت الرواية من أولها إلى آخرها محملة بأصداء الجسد .

لقد جعلت الكاتبة بطل روايتها رجل طاله العطب جسدا وروحا ففي إحدى المعارك ضد المستعمر اخترقت ذراعه رصاصتان لينقل على جناح السرعة إلى الحدود التونسية لتلقي العلاج،وقد كان علاجه بتر ذراعه اليسرى لاستحالة استئصال الرصاصتين يقول"كنت أشعر لسبب غامض أنني أصبحت يتيما مرة أخرى،كانت دمعتان قد تجمدتا في عيني،كنت أنزف وكان ألم ذراعي ينتقل تدريجيا إلى جسدي كله ويستقر في حلقي غصة الخيبة والألم..والخوف من المجهول[10].

إن الإحساس بعطب الجسد إحساس فظيع"تزداد فظاعته كلما كنت مثار شفقة الآخرين ،فربما في السنوات الأولى للاستقلال،وقتها كان للمحارب هيبته ولمعطوبي الحرب شيء من القداسة بين الناس،كانوا يوحون بالاحترام أكثر ما يوحون بالشفقة،ولم تكن مطالبا بأي شرح ولا أي سرد لقصتك،كنت تحمل ذاكرتك على جسدك،ولم يكن ذلك يتطلب أي تفسير.اليوم بعد ربع قرن أنت تخجل من ذراع بدلتك الفارغ الذي تخفيه بحياء في جيب سترتك وكأنك تخفي ذاكرتك الشخصية وتعتذر عن ماضيك لكل من لا ماضي لهم .يدك الناقصة تزعجهم تفسد على البعض راحتهم تفقدهم شهيتهم..ها أنت أمام جدلية عجيبة تعيش في بلد يحترم موهبتك ويرفض جروحك وتنتمي لوطن يحترم جراحك ويرفضك أنت فأيهما تختار وأنت الرجل والجرح في آن واحد وأنت الذاكرة المعطوبة التي ليس هذا الجسد المعطوب سوى واجهة لها[11] يصور خالد حقيقة جسده المبتور ويبين مدى تأثير ذلك على نفسه وعلى غيره،فبعدما كانت عاهته تمثل هوية وذاكرة ورمز كفاح وتضحية أصبحت اليوم تثير شفقة بعض العامة وقرف البعض الآخر فلا أحد يقدر جرحك لا في الوطن ولا خارجه"فعندما تهجرك أعضاؤك وتتخلى عنك وهي من لحمك ودمك ،عليك ألا تتعجب أن يتخل عنك حبيب أو قريب أو وطن فما بالك بلوحة"[12]

نسخة غير قابلة للطباعة

أثر بتر ذراع خالد على نفسيته ،فقد عانى من ألم نفسي ومعنوي وجسدي،فتشابك وجعه مع وجع الوطن الجريح النازف. لم يقتصر الألم على الجسد فقد طال روحه أيضا.لقد عانت الروح من عطب الجسد وكيف لا تعاني والجسد والروح هما قوام الإنسان،فالإحساس بالنقص وبالدونية إحساس فظيع يعذب خالد على الدوام.

في رواية في الجبة لا أحد لزهرة ديك تستحضر الكاتبة العشرية السوداء فتصور بعض الذين هاجمتهم جماعات الإجرام وكيف اقتحموا ديارهم وساقوهم كخرفان الأضحية ليذبحوهم في المنعطفات أو في المناطق المظلمة أو حتى في عقر دارهم على مرأى ومسمع ذويهم وجيرانهم. لقد صورت كيف استباح الإرهاب حرمة الجسد ،فلم يقم له اعتبارا على أنه كيان، لم يكتف بقتل هذا الجسد ،بل نكل به،فاتخذ من الذبح وسيلة لتحطيم هذا الكيان وكأن الذبح هو الوسيلة الوحيدة لإبادة الجسد والروح إبادة نهائية،فالذبح أفظع وأشنع من القتل.إنه اغتصاب للروح قبل الجسد لقد أصبح"الجسد في هذه المدينة هو القضية الأولى وهو الهاجس الأكبر لديها.الباب مازال يطالب بالجسد،الجسد،الجسد والجسد في هذه المدينة بات الباعث الأول على القلق والسؤال الجوهري الذي أصبح يتوقف عليه دوران الكرة الأرضية،وبات موضة هذا العصر البشع....كيف يمكن لك الحفاظ على هذا الجسد وإحاطته بكل ما يلزم من شروط الأمان والسلامة أو كيف تجبر على التخلي عنه ومغادرة حواسه إما بقتله أو بقتلك"[13]

وفي رواية الممنوعة لمليكة مقدم برز الجسد ككيان وروح من خلال فكرة العطاء والتي تتضح من خلال التبرع بأحد أعضاء الجسد وهو الكلية،إذ يتم التبرع بين طرفين مختلفين في عرقهما وجنسهما ،فالمتبرعة جزائرية والمتبرع له فرنسي المتبرعة امرأة والمتبرع له رجل.

لم يؤخذ الاختلاف الجنسي أو العرقي بعين الاعتبار أثناء عملية التبرع وإنما كان الهم الوحيد هو إنقاذ حياة إنسان آخر أو بالأحرى منح الحياة لجسد آخر،ففانسان شاب فرنسي كان يعاني من فشل كلوي وهو بحاجة إلى من يتبرع له بكليته،وتشاء الأقدار أن يكون المتبرع امرأة جزائرية.

إن فكرة التطعيم بكلية أخرى غرست بداخل فانسان فكرة الجنس الآخر والعرق الآخر وجذرت في أفكاره الشعور بالتهجين وهذا ما دفع به إلى زيارة الجزائر.لقد كان يتحسس دائما كليته فيقول: "ألتمس العضو المطعم بحنين في روحي وفي أصابعي،إلى ذلك الجسم المجهول أبدا،إلى هذه الأجنبية من هوية واحدة،إلى توأمتي الجزائرية ممدا في العتمة حينما لا أستطيع رؤية نفسي يحدث لي أن افتح ذراعي لاستقبالهما وإغلاقهما حول هذا النقص،أحتضن غيابها،أضم فراغ حضورها كلية لا شيء تقريبا،عاهة خطأ لا أحد يجمعنا أبعد من الحياة والموت ،إننا رجل وامرأة فرنسي وجزائرية،نجاة وموت توأمتان"[14]

تطرح الكاتبة في هذا المقطع فكرة الهوية وذلك من خلال عملية التهجين الواقعة على المستوى الجسدي،إذ تم التهجين بين جنسين مختلفين ذكر وأنثى ،جزائرية وفرنسي.

إن مثل هذا التهجين جعل فانسان يحس بأن له جذورا جزائرية وبأنه مدين بحياته لامرأة جزائرية.

تريد الكاتبة أن تطرح فكرة مفادها أن المرأة تستطيع بجسدها أن تهب الحياة للرجل وأن الرجل يمكن أن يكون مدين بكل حياته لامرأة وفي هذا يقول فانسان:"أ شعر كأنني لست إلا مرتزقة منها بقيت حية بعد موتها"[15].

وبذلك يمكن القول أن الجسد الأنثوي قادر على أن يهب الحياة ويبثها في جسد آخر.غير أن هذا الجسد الأنثوي القادر على وهب الحياة للغير عادة ما يبث فيه المجتمع الشعور بالنقص وبالخجل خاصة عندما يبدأ هذا الجسد في الإعلان عن ذاته،هذا ما نلمسه على لسان بطلة فوضى الحواس التي بينت كيف يعمل المجتمع على جعل الأنثى تستحي من أنوثتها وكيف يعلمها إنكار جسدها وإخفائه تقول في ذلك:"وبما أن الحمام هو المكان الذي تنتهك فيه حرمة الجسد وحياؤه وتسلط عليه الأضواء

نسخة غير قابلة للطباعة

والنظرات الفضولية للنساء،وتتالى عليه الأيدي حكا ودلكا وتشطيفا ساكبة عليه كميات هائلة من الماء وكأنها تريد أن تطهره من أنوثته"(16)

في هذا الفضاء الذي تجتمع فيه النسوة للاستحمام ولاستعراض ما يمتلكنه ترى البطلة أنه"تتعلمين من عيون الآخرين كيف تنكرين جسدك وتظهرين رغباتك وتتبرئين من أنوثتك قد علموك أن الجنس ليس وحده عيبا وإنما الأنوثة أيضا وكل ما يشي بها ولوصمتا"[17]

أما لويزا فتشهر خجلها من أنوثتها فتعرض عن شراء بعض مستلزمات الأنثى من أدوات زينة وتعطير تقول:"أعجبني جناح العطور والزينة،لكنني لم أشتر شيئا خضوعا لخجلي الدائم من أنوثتي"[18]

لقد دأب المجتمع على اعتبار معالم الأنوثة عيبا وعورة، وعلى الأنثى حجب جسدها كونه أصبح مثار فتنة وإغراء.

إن الإحساس والشعور بالخجل من الأنوثة لهو إحساس يتحمل تبعته المجتمع فهو الذي يغرس هذا الشعور في الأنثى لتخوفه الدائم من الأنثى عندما تشهر أنوثتها.وما إن تبرز معالم الأنوثة حتى يعمل المجتمع(الرجل) على حجبها خوفا من الفتنة والإغراء.

تمرد الجسد :

تبرز قضية (حجب الجسد) بوصفها ظاهرة اجتماعية تتصل بثقافة المجتمعات التي تعيش فيها المرأة، فتدرج ثلاثة أسباب للتحجب : الأول سبب ديني يتم بموجبه الأخذ بأن الحجاب منصوص عليه في الدين وينبغي مراعاة ذلك، فتجاري المرأة سواها من النساء فيما يرتدين، والثالث سبب يتصل بالسلوك الشخصي للمرأة في مجتمع تقليدي شبه مغلق في علاقاته الإنسانية، فالحجاب وسيلة للتنكر والتمويه في مجتمعات تحول دون ممارسة الحرية الفردية، وهذا أقرب إلى ما يصطلح عليه عالم الاجتماع "ألان تورين" بالاحتجاج بالصمت، فارتداء الحجاب يمكن أن يكون ممارسة الحرية بالتنكر عند بعض النساء[19].

لكن لماذا تلجأ المرأة إلى ممارسة الحرية بالتخفي؟ ألا تتعارض الحرية مع الممارسات التنكرية كائنا ما كان شكلها ؟

يبدو أن السبب الذي جعل المرأة تلجأ إلى ممارسة الحرية بالتحجب(حجب الجسد) هو الخوف من الرجال أو استجابة لرغباتهم، فالثقافة الذكورية مصممة لكي يتمتع بامتيازاتها الرجال أما النساء فخارج مجال اهتمامها وحينما تتصل ثقافة الذكور وتتحول إلى مجموعة من الروادع القاهرة، تلجأ المرأة إلى التنكر لعبور هذه الحواجز، تعيد الثقافة الذكورية إنتاج صورة المرأة طبقا لحاجاتها وتصوراتها، وفي بعض المجتمعات يفرض الحجاب على جسدها استجابة لرغبة الثقافة الذكورية، فالذكور هم الذين يفرضون الشروط والقواعد ويحددون نوع العلاقات وطريقة الظهور الاجتماعية ويصوغون في ضوء ذلك نوع الرغبات والأهواء، وفي وسط مشحون بالمخاوف توصف المرأة بأنها نزوية وهشة وشهوانية وأسيرة حواسها وليس عقلها، وتقودها العواطف وليس الأفكار، وهي كائن خطر لا يؤتمن، فتحتاج إلى وصاية الرجل ورقابته. إن الثقافة الذكورية التي أقصت المرأة، وحجبت جسدها جعلتها من جهة أخرى، تتوهم نفسها جسدا مثيرا فحسب، وصارت تسعى إلى إبرازه على أساس أن كل محجوب مرغوب، وعلى هذا تكون الثقافة الذكورية قد احتكرت تصورا للمرأة وجعلت من جسدها سلعة استهلاكية، ولم يقتصر الأمر على جعل المرأة مادة يتم التلاعب بها عبر ثنائية الاحتجاب والكشف والعرض والطلب، إنما أسهمت حركات تحرير المرأة بهذا الجانب بالإعلاء الهوسي لقضية الجسد على أنه برهان الحرية الوحيدة، وكل هذا تسرب بصورة أو بأخرى إلى التخيلات السردية [20] وهذا ما نلمسه في رواية مزاج مراهقة لفضيلة الفاروق، أين تعرضت البطلة لويزا إلى ضغط كبير من طرف العائلة، فقد فرض عليها ارتداء الحجاب(حجب الجسد) والذي كانت تعده قيدا لأنه يحول دون ممارستها لحريتها وبناء وجودها،

نسخة غير قابلة للطباعة

فالحجاب في نظرها شكل من أشكال الضعف عند المرأة والسبب في التعدي على خصوصيتها ورغبتها في مواكبة الواقع الذي يتغير ويتطور.

تطرح فكرة فرض الحجاب على لويزا على إثر حصولها على شهادة البكالوريا "حين نجحت في شهادة الباكالوريا فاجأنا والدي باتصال من فرنسا، مقر إقامته وعمله قال: ترتدي الحجاب وتذهب إلى الجامعة، فيما بعد عرفت أن رجال العائلة عارضوا التحاقي بالجامعة وأن والدي حاول إيجاد حل وسط لإرضاء جميع الأطراف، يومها فقط عرفت أن غياب الرجل عن البيت يعني بيت بلا سقف" (21)

ما كان على لويزا إلا الاستجابة والخضوع لقرار ارتداء الحجاب بالرغم من أنها أبدت مقاومة لهذا القرار، لكن كل مقاومتها باءت بالفشل" رفضت وبكيت وصرخت وفي الأخير أضربت عن الطعام لكني فشلت، فكل سبل المقاومة لدي كانت هشة أمام الصقيع الذي يغطي قلب والدي ولا مبالاة أفراد العائلة، فمازالت أذكر نبرة صوته الغاضب عبر الهاتف وهو يقول لي بتأني المقتنع بقراره ابقي في البيت إذن أو موتي" (22)

يقدم هذا المقطع صورة لخضوع المرأة وصورة لسلطة الرجل واستبداده، إذ لا تجد المرأة مجالا لممارسة حريتها، فتخضع لإرادة الرجل لأنها لا تملك خيار آخر، فوالد لويزا وضعها أمام اختيارات ثلاث، المكوث في البيت وهذا يعني القضاء على أحلامها وطموحاتها أو الموت أو ارتداء الحجاب، فما كان منها إلا الاستجابة لقرار ارتداء الحجاب، إنها ترتديه مجبرة مضطرة تقول : "ما يزعجني هو أنني أرتديه خضوعا لقرارهم دون أي إيمان ، إنني أتنكر من أجل أن يدعني والدك وباقي رجال العائلة بسلام، لا أرضي الله بهذا ولكني أرضي كائنات لا تفوقني ذكاء" (23)

يبدو من خلال هذا المقطع السردي،أن الذات الأنثوية لا تملك حريتها،فهي تابعة للرجل يضعها ضمن ممتلكاته،فيتحكم في رغباتها واهتماماتها،فلا يترك لها مجالا للحرية والاختيار .بذلك كانت لويزا شخصا هينا طيعا لا يحسن غير الرضوخ لأنه لا يملك غير ضعفه كوسيلة للعيش.

يبدو من خلال ما سبق ذكره أن للحجاب(حجب الجسد) أبعاده عدة :

*بعد ديني : يتمثل في كونه رمزا للتدين والالتزام، ناهيك عن كونه مفروضا على المرأة، فهو يمثل معلما من معالم الهوية الإسلامية.

*بعد اجتماعي: يتضح في كونه سترة للمرأة ،إذ يظهرها في صورة الملتزمة والمحترمة.

*بعد نفسي : يوثق الصلة بين المرأة وخالقها، كونها التزمت بحدود الله، كما أنه يشعرها بالعفة والطمأنينة والاستقرار، هذا إذا كان ارتداؤه عن قناعة ورضى، أما إذا كان ارتداؤه ارتداء المضطر فسيكون بمثابة القيد أو الزي التنكري، "أشعر أن السفر إلى الجامعة بذلك الزي التنكري يعني الموت" (24)

*بعد سياسي : اتخذ الحجاب بعدا سياسيا في فترة التسعينات على إثر ظهور بعض الحركات الإسلامية التي كانت تدعو إلى الجهاد في سبيل الله وإلى التدين والالتزام بالحجاب، فبحلول الانتخابات طلب من لويزا التصويت على الفيس، ولما أبت تعرضت للعنف اللفظي والجسدي "فهوت يده على خدي بقوة أوقعتني أرضا، صرخت فيما همّ ليركلني برجله لولا تدخل بعض الشبان، فأمسكوا به وهو يصرخ الله أكبر الجهاد في سبيل الله، حجابك باطل يا كاذبة" (25) وقد كانت ردّة فعل لويزا أن نزعت الخمار " ولم أجد وسيلة لحرق دمه غير نزع الخمار على رأسي والإلقاء به في وجهه قلت له : إذا كان هذا ما سمح لك لتتعدى على خصوصياتي فهو لك ... إذا كان الحجاب يسمح لوغد مثل هذا أن يصفعني أمام الملأ ويتدخل في حياتي

نسخة غير قابلة للطباعة

فقد أعطيته له، لن أرتديه منذ اليوم وسأترك الجامعة إذا أرادوا لي ذلك ،لكني سأحترف الإجرام وأول واحد سأقتله عمي مصطفى وابنه هذا الوغد" (26)

توضح المقاطع السابقة الذكر عنفا ممارسا ضد المرأة ،وقد كان هذا العنف لفظيا وجسديا ومعنويا تمثل في الشتم والصراخ والركل وحرمان تعسفي من الاختيار وكبت للحرية. هذا الضغط الممارس على المرأة أفضى إلى الانفجار،فقد حاولت لويزا ضرب الرجل وعندما عجزت عن ذلك نزعت الخمار وقصت شعرها توعدت بعدم ارتداء الحجاب.لقد جعلها هذا الموقف تعيش حالة نفسية مزرية إنها تحس بالقهر والنقمة التي جعلتها ترغب في القتل من أجل أن تنتقم من الرجل لم ترتد لويزا الحجاب عن قناعة و رضى فقد كانت مضطرة لارتدائه وقد اضطرت لخلعه "لكني اضطررت لخلعه، لا أحب الحجاب الذي يزج بي في تيار سياسي أو قالب امرأة قديمة، أنا هكذا مرتاحة" (27)

لقد مثل الرجل السلطة القامعة لحرية المرأة، فيما مثلت المرأة الجنس الخاضع الذي لا يملك الخيار أو البديل. غير أن خضوع المرأة لا يستمر طويلا فسرعان ما تعلن المرأة عن ثورتها وتمردها عن كل القيود التي فرضها عليها الرجل فيكون نزع الحجاب هو الرد على ذلك القمع وذلك الاضطهاد.

يبدو أن إقدام لويزا على نزع الحجاب ـ حسب رأيها ـ دليل على وعيها وإدراكها لهويتها، لقد استطاعت بهذه الطريقة أن توقف الرجل عند حدّه. إن الحجاب يمثل معلما من معالم الهوية الإسلامية والتمسك به يمثل تمسكا بالهوية الدينية، وتخلي لويزا عن الحجاب يعد استغناءا عن إحدى معالم الهوية الدينية غير أن غاية لويزا من نزع الحجاب لم يكن بدافع ديني إنما كان ردة فعل اتجاه القهر الذي تعرضت له من طرف أفراد عائلتها.

فيما تعتبر لويزا الحجاب(حجب الجسد) قيد وزي تنكري، تلجأ بطلة فوضى الحواس إلى الحجاب (حجب الجسد) بمحض إرادتها، وتتخذه كزي تنكري لمقابلة حبيبها وذلك حتى لا يتعرف عليها أحد، لقد كان الحجاب وسيلتها الوحيدة للتنكر والتمويه وذلك لممارسة حريتها ووجودها "أجتاز ساحة الأمير عبد القادر راجلة بخطى رهيبة وداخل ثياب محتشمة، أتعلم المشي داخل هذه العباءة وهذا الشكل الذي يغطي شعري وكأنني لم أخلعها يوما. أمشي يقودني الخوف إلى السرعة تارة وإلى التأني تارة أخرى محتمية بثياب لا تشبهني، استعرتها هذه المرة من امرأة أخرى ليست سوى فريدة، ها أنا أعيش بين ثياب امرأتين إحداهما تحترف الإغراء والأخرى التقوى، أذهب لملاقاة ذلك الرجل مرة في ثوب أسود ضيق ومرة في عباءة فضفاضة لا يبدو منها سوى وجهي تتناوب علي امرأتان كلتاهما أنا"(28)

ما إن وصلت البطلة أمام مقهى الميلك بار استحضرت شخصية جميلة بوحيرد وكيف تنكرت بثياب أوروبية، إذ دخلت المقهى وطلبت شيئا من النادل وقبل مغادرتها تركت حقيبتها ملأى بالمتفجرات، ليهتز على إثرها المكان، فتطالب فرنسا برفع الحجاب واكتشاف أن المرأة في زي عصري قد تخفي فدائية . لقد جعلت البطلة من نفسها وريثة شرعية لبوحيرد، إنها تمر بالمكان نفسه، متنكرة في ثياب التقوى، مدركة أن النساء قد اكتشفن أن ثياب التقوى قد تخفي عاشقة وتخبئ تحت عباءتها جسدا مفخخا بالشهوة.

يتضح من خلال ما سبق ذكره أن الوعي والإحساس بالهوية لا يتأتى إلا من خلال الإحساس بحرية الجسد، فما إن فرض الحجاب على لويزا حتى أحست بالقمع والاضطهاد والتسلط ،فقد مثل الحجاب وسيلة قامعة لحريتها، إذ لم تستطع ممارسة حريتها بهذا الزي التنكري المفروض عليها، وقد يكون الحجاب وسيلة للتحرر من رقابة الآخرين وتطفلهم وتجسسهم.

نسخة غير قابلة للطباعة

يبدو أن تحرر الجسد الأنثوي لا يتأتى إلا بالتمرد والثورة، كما هو حال لويزا، أو بالتنكر والتمويه كما هو حال حياة، فبالتمرد والثورة يمكن التغلب على عنجهية الرجل وسيطرته، فالرغبة في التحرر أدت بلويزا إلى خلع الحجاب المفروض عليها وجعل الجميع يتقبل الأمر الواقع، وتنكر حياة في ثياب محتشمة جعلها تتجاوز رقابة الرجل وبذلك تمارس حريتها بكل طلاقة.

بعد استقراء هذه النصوص يتضح أن الجسد مكون أساسي من مكونات الهوية، وأنه قد تجاوز دوره الفيزيولوجي واتخذ أدوارا وقيما ثقافية وجمالية وسبب ذلك توظيفه كتيمة في متون النصوص الروائية. وتعد المرأة أكثر من استأثر بتوظيف هذه التيمة فقد أحسنت توظيفه فجعلته مكونا أساسيا في تشييد نصها الروائي وبذلك أصبح الحديث عن الجسد يحيل مباشرة على المرأة فقد أصبح معلما من معالم هويتها الأنثوية.

لقد منح حضور الجسد النصوص قيمة ثقافية وجمالية تجلت عندما تشابكت صرخته داخل النص وصرخة الكاتبة، فصرخة الجسد المبتور(ذاكرة الجسد) والجسد المغتال (في الجبة لا أحد) والجسد المقموع(مزاج مراهقة).جعلت الجسد يتجاوز هويته الطبيعية ويكتسب هوية سوسيو ثقافية وبذلك استطاعت المرأة أن تحقق من خلال الكتابة بالجسد وجودها اللغوي والنفسي والاجتماعي والثقافي.

الهوامش:

1.حفناوي بعلي، مدخل في نظرية النقد الثقافي المقارن ،الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2007 ،ص129 .

2. المرجع نفسه، ص 135

3. محمد شوقي الزين،الذات والآخر تأملات معاصرة في العقل والسياسة والواقع، منشورات ضفاف ،لبنان ،ط1 ، 2012،ص59

4.هشام العلوي،الجسد والمعنى قراءات في السيرة الروائية المغربية ،شركة المدارس للنشر،المغرب،ط1،2006 ،ص8

5.الأخضر بن السائح،سرد المرأة وفعل الكتابة،دراسة نقدية في السرد وآليات البناء، دار التنوير ،الجزائر،ص144

6.المرجع نفسه، ص153

7.محمد قرانيا،الستائر المخملية،ملامح الأنثى في الرواية السورية حتى عام2000، اتحاد الكتاب العرب ،دمشق،2004،ص169

8.حسين المناصرة النسوية في الثقافة والإبداع، عالم الكتب الحديث، إربد، ط1، 2007، ص157.

9. المرجع نفسه، ص 160.

10.أحلام مستغانمي ،ذاكرة الجسد ،دار الآداب ،بيروت،ط26 ،ص27

11.المرجع نفسه،ص73

12.أحلام مستغانمي،عابر سرير،دار الآداب ،بيروت،ط 19،ص148

13.زهرة ديك ،في الجبة لا أحد، منشورات الاختلاف ،الجزائر،ط1، 2002،ص153

14.مليكة مقدم،الممنوعة،ترجمة محمد ساري،منشورات الاختلاف،الجزائر،ط1، 2008 ،ص29

15.المرجع نفسه،ص29

16.أحلام مستغانمي،فوضى الحواس،دار الآداب،بيروت، ط19، 2010 ، ص232

17.المرجع نفسه ص29

18. فضيلة الفاروق، مزاج مراهقة، دار الفارابي، بيروت، ط2،ص26.

19.عبد الله إبراهيم، موسوعة السرد العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2008، ص379 .

20. المرجع نفسه، ص 384.

21.فضيلة الفاروق، مزاج مراهقة، ص 12

نسخة غير قابلة للطباعة

22.المرجع نفسه،ص13

23. المرجع نفسه، ص 22

24 .المرجع نفسه، ص12

25.المرجع نفسه،ض54

26. المرجع نفسه،ض54

27.المرجع نفسه،ض273

28.أحلام مستغانمي،فوضى الحواس،ص170

نسخة غير قابلة للطباعة